بسم الله الرحمن الرحيم
جمهورية العراق

MINISTRY OF HIGHER EDUCATION
&SCIENTIFIC RESEARCH
UNIVERSITY OF AL-QADISYA
COLLEGE OF EDUCATION
AL-QADISIYA JOURNAL FOR
EDUCATIONAL SCIENCES

وزارة التعليم العالي
والبحث العلمي
جامعة القادسية
كلية التربية
مجلة القادسية في الآداب
والعلوم التربوية

ISSN 2519-6162 ONLINE - PRINT ISSN 2518-9174 التصنيف الدولي :

العدد / ٥٣٨
التاريخ / ٧ / ١٢ / ٢٠٢١

إلى / أ.م.د. صلاح حسون جبّار المحترم
كلية الآداب / قسم اللغة العربية
الباحثة سارة عليوي أبو سودة المحترمة
كلية الآداب / قسم اللغة العربية

م / قبول نشر

تحية طيبة .

يسر هيأة تحرير مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية أن تعلمكم بقبول نشر بحثكم الموسوم بـ (**القضيدة الرثائية في كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعوديّ (ت ٣٤٦ هـ)**) ، وسيتم نشره في الأعداد القادمة .

مع التقدير.

أ.د.سرحان جفات سلمان
رئيس التحرير
٧ / ١٢ / ٢٠٢١

نسخة منه إلى:
- أمانة التحرير.
- الصادرة .
- وحدة الرقابة.

البريد الالكتروني:journal of alaqadisia@yahoo.com
journal of alaqadisia@yahoo.com

القصيدة الرثائية في كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر

للمسعودي (ت٣٤٦هـ)

المشرف **الباحث**

أ.م.د. صلاح حسون جبار **سارة عليوي ابو سودة**

Email: salah.jabbar@qu.edu.iq

الملخص عربي :

الرثاء من الأغراض الشعرية القديمة، التي لا يخلو ديوان شاعر منها، وأكثر الأغراض تأثيرا إذ تنبع من إحساس صادق بالفقد والفناء ولذا فهي غالبا من تكون خالية من الكلفة لا تظهر فيها ملامح الصنعة . وأحيانا يتجاوز إلى التأمل في الموت ومصير البشر المأساوي الذي لا نعرف عنه إلا القليل . فغرض الرثاء باب مندلع على مصرعيه ليتنافذ مع بقية الأغراض من حكمة وحماسة وحكمة وتفلسف وزهد ومدح لأن قصيدة الرثاء تحمل أنواعا كثيرة من مشاعر الأديب تحمله تارة على الزهد وأخرى على الحكمة والتفلسف وغيرها . وسنقف على قصيدة الرثاء في كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر ونرى كيف كان القصيدة الرثائية خاصة قبل العصر العباسي.

الكلمات المفتاحية : الرثاء– مروج الذهب – المسعودي

The elegiac poem in the book Meadows of Gold and Minerals of the Core by Al-Masudi (d. 346 AH)

Researcher **Supervisor**

Sarah Alawi Abu Soda **Professor .Assistant .Dr. Salah Hassoun Jabbar**

Email: salah.jabbar@qu.edu.iq

Abstract :

Lamentation is one of the ancient poetic purposes, of which the poetry of a poet is not without, and the most influential purpose, as it stems from a sincere sense of loss and annihilation, and therefore it is often free of cost and does not show the features of workmanship. Sometimes it goes beyond to contemplate death and the tragic fate of human beings, about which we know little. The purpose of the

lamentation is a door that opens at its ends to pierce with the rest of the purposes of wisdom, enthusiasm, wisdom, philosophy, asceticism and praise, because the lamentation poem bears many types of literary feelings that it bears sometimes on asceticism and other times on wisdom and philosophizing and others. And we will stand on the lamentation poem in the book, Mesadows of Gold and Minerals of the Jewel, and see how the elegy poem was, especially before the Abbasid era.

Key word : Lamentation- Gold and Minerals- Al-Masudi

المقدمة :

الرثاء من أصدق أغراض الشعر، فالشاعر يقول وكبده يحترق، الرثاء يتدخل مع الأغراض الأخرى كلها تقريبا، لأن له ارتباط وثيق بالمدح إذا كلاهما تعداد مناقب ومحامد ، كما يتداخل مع الفخر والحماسة لأنه في بعض الأحيان يكون الأخذ بثأر المقتول داعٍ لهذا التداخل . ومن مبررات هذا التدخل عموما أن الشاعر يتمسك بالتناسب بين المعاني والافكار دون مراقبة منه للغرض والمقام . ولذا نجد التداخل يعم أغراض الشعر عامة ، مثل التداخل الحاصل بين الرثاء والهجاء في قصيدة رثاء زوجة جرير ، إذ سرعان ما خرج من الرثاء إلى هجاء الفرزدق . أو التنافذ بين المدح والفخر لأن الشاعر لما يمدح قومه بالضرورة يكون هناك فخرا منه بهم . وهذا كان عقبة كبيرة لدى النقاد العرب في تقسيم الشعر حسب أغراضه. وعلى الرغم من أن القدماء يعرفون الغرض لكنهم لم يستطيعوا حد الاغراض فالتعريفات التي يسوقها القدماء للهجاء والرثاء والمدح وغيرها حدود ليست جامعة ولا مانعة . إذا قالوا أن الرثاء هو المدح والثناء على الميت ، وليس هناك فرق بين المدح والرثاء غير أن يكون الممدوح ميتا ، بينما وجدنا مدحا لميت ولم نستطع أن نقول أنه رثاء . وهذا يدل على صعوبة وضع حدود لحركة الشاعر فالشاعر لا يلتزم بالمعايير الفنية التي يتواضع عليها النقاد فهو دائما متمرد يصعب تقنين قوله ، لأنه منساق ضمن مشاعره وعالمه .

اغراض الرثـــاء في مروج الذهب

الرثاء ((فن أدبي يعبر عن الألم والتوجع والتأسف، وهو باصطلاح أهل اللغة بكاء اهل الميت، وتعداد حسناته، وتمجيد صفاته ومناقبه بالشعر والنثر))[1].

ويرى قدامة بن جعفر أنه لا فرق بين الرثاء والمدح إلا في اللفظ إذ يقول: ((إنه ليس بين المرثية والمدحة فصل إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل على أنه لهالك مثل (كان) و(تولى)

و(قضى نحبه) وما أشبه ذلك وهذا ليس يزيد في المعنى ولا ينقص منه، لأن تأبين الميت إنما هو يمثل ما كان يمدح به في حياته))[٢].

ونحن نتفق معه في ذلك إذا كان الرثاء تأبيناً أو تعزية، وهناك فرق كبير بين الرثاء الندبي والمدح، ففي الأول يبكي الشاعر الميت ويتوجع لفقده، ويتفجع لموته، ويعلن حزنه، وألمه بخلاف المدح الذي يجر فيه عن الفرحة والبهجة ويصور الممدوح تصويراً بعيداً عن الندب والبكاء والحزن والنواح[٣]، والرثاء على الوان ثلاثة: الندب، والتأبين، والعزاء(التعزية)[٤].

وللعرب قصائد طول في الرثاء وطالما يكتب العرب عن ويلات الحروب ولهذا صارت المراثي أجود أشعارهم لأنهم يقولون وأكبادهم تحترق[٥].

والقصائد الرثائية أشد الأغراض التصاقا وارتباطا بأسبابها ومناسباتها ولذا فأن المسعودي لا يروي أشعار الرثاء إلا بعد جملة من الأحداث تكون المقطوعات الشعرية جزءاً منها، ويمكن أن نلتمس أبرز محاور غرض الرثاء الواردة في كتاب (مروج الذهب) كما في الآتي ذكره:

١- رثاء أهل البيت(عليهم السلام):

أورد المسعودي جملة من القصائد والمقطوعات في رثاء الإمام علي (عليه السلام)[٦]:

قُـلْ لِابْـنِ مُلْجَـمَ وَالْأَقْـدَارُ غَالِبَـةٌ ... هَـدَّمَتْ وَيْلَـكَ لِلْإِسْـلَامِ أَرْكَانَـا

قَتَلَـتْ أَفْضَـلَ مَـنْ يمَشِّـي عَلَـى قَـدَمٍ ... وَأَوَّلَ النَّـاسِ إِسْـلَامًا وَإِيمَانـا

وَأَعْلَـمُ النَّـاسِ بِـالْقُرْآنِ ثُـمَّ بِمَـا ... سَـنَّ الرَّسُـولُ لَنَـا شَـرعَاً وَتِبْيَانَـا

صِـهْرَ النَّبِـيِّ وَمَـوْلاه وَنَاصِـرَه ... أَضْـحَتْ مَنَاقِبُـهُ نُـورًا وَبُرْهَانـا

وَكَـانَ مِنْـهُ عَلَـى رَغْـمِ الْحَسُـودِ لَـهُ ... مَكَـانَ هَـارُون مِـنْ مُوسَـى بْـنِ عُمْرَانـا

وَكَـانَ فِـي الْحَـرْبِ سَـيْفًا صَـارِمًا ذَكَـرا ... لَيثـاً إِذَا لَقَـيَ الْأَقْـرَانَ أَقْرَانـا

ذَكَّـرَتْ قَاتِلَـهُ وَالـدَّمْعُ مُنْحَـدَرٌ ... فَقُلْـتُ: سُـبْحَانَ رَبِّ النَّـاسِ سُـبحَانَا

إِنِّـي لِأَحْسَـبُهُ مَـا كَـانَ مِـنْ بَشَـرٍ ... يَخْشَـى الْمُعَـادُ وَلَكِـنْ كَـانَ شَـيْطَانَا

أَشْـقَى مُـرَادٍ إِذَا عُـدْتْ قَبَائِلُهَـا ... وَأَخْسَـرُ النَّـاسِ عِنْـدَ اللهِ مَيَّزَانَـا

كَعَـاقِرِ النَّاقَـةِ الْأُوْلَـى الَّتِـي جَلَبَـتْ ... عَلَـى ثمـود بِـأَرْضِ الْحِجْـرِ خُسْـرَانَا

قَـدْ كَـانَ يُخبـرُهُمْ أَنْ سَـوْفَ يَخْضِـبُهَا ... قَبْـلَ الْمَنِيَّـةِ أَزْمَانًـا فَأَزْمَانَـا

فَـلَا عَفـا اللهُ عَنْـهُ مَـا تَحَمُّلَـهَ ... وَلَا سَـقَى قَبْـرَ عُمْـرَانَ بْـن حِطَّانَـا

لِقَولِـهِ فِـي شِـقيٍّ ظَـلَّ مُجترِمـاً ... وَنَـالَ مَـا نَالَـهُ ظُلْمًـا وَعَـدُوانَا

يَـا ضَـرْبَةً مِـنْ تقـيٍ مَـا أَرَادَ بِهَـا إِلَّا لِيَبْلُـغَ مِـنْ ذِي الْعَـرْشِ رضـوْانَا
بَـلْ ضَـرْبَةً مِـنْ غَـوِيٍّ أَوَرَثَتْـهُ لَظـىً فَسَـوْفَ يلْقَـى بِهَـا الـرَّحْمَنَ غَضْـبَانَا
كَأَنَّـهُ لَـمْ يُـرِدْ قَصْـدًا بِضَـرْبَتِهِ إِلَّا لِيَصَـلى عَـذَابَ الْخُلْـدِ نَيرَانَـا[٧]

وفي هذه القصيدة تظهر المعاني الدينية بشكل واضح اذ يعتمد الشاعر على الحديث النبوي الشريف وتضمينه في شعره كما أخذ من الآي القرآني، فالتناص عموماً واضح في القصيدة.

والشاعر هنا يبين أن المقتول ليس شخصاً عادياً بل من خير الناس وهو ابن عم الرسول وخليفته وهو ركن من اركان الهدى وعلم من اعلام الاسلام فأي عظيم قتلوا فخسارة المجتمع كبيرة.

كما رثى علياً (عليه السلام) أبو الأسود الدؤلي[٨] فقال:

أَلَا ابْلِـغْ مُعَاوِيَـةَ بْـن حَـرْبٍ فَـلَا قَـرَّتْ عُيُـونُ الشـامتينا
أَفِـي شَـهْرِ الصِّـيَامِ فجعتمُونـا بِخَيْـرِ النَّـاسِ طَـرًّا اجْمَعِينَـا؟
قَتَلْتُم خَيْرَ مَنْ رَكْبِ الْمَطَايَا وَذلَّلَهَا وَمَـنْ رَكِـبِ السَّـفِينَا
وَمِـنْ لَـبْسِ النِعَـالَ وَمَـنْ حَـذَاهَا وَمَـنْ قَـرَأَ الْمَثَـانِيَ وَالْمُبَيِنَـا
إِذَا اِسْـتَقْبَلتَ وَجْـهَ أبـي حُسِـينٍ رَأَيْـتَ النُّـورَ فَـوْقَ النّاظِرِينَـا
لِقَـد عَلِمَـتْ قُـرَيْشٌ حَيْـثُ كَانَـتْ بِأَنَّـكَ خَيْـرُهُمْ حَسَـبًا وَدِينًـا[٩]

وواضح أنه يذكره بمحامد ومناقب إسلامية خالصة فهو((خير الناس دينا وهب نفسه لربه يتلو قرآنه مثانيه ومئينه ويقيم شريعته على الحدود والفرائض التي شرعها الإسلام فهو الخليفة التقي الصالح العدل الذي سار على الطريق النير لا يحيد ولا يميل كأنه قسطاس الدين المستقيم ومعياره السليم))[١٠].

ويقول[١١]: النجاشي في رثاء الحسن (عليه السلام):

جَعْـدَةُ بَكِّيـةِ وَلاَ تَسْـأمِي بَعْـدُ بُكَـاءِ المُعْـوِلِ الثَّاكِـلِ
لَـمْ يُسَـبلِ السـترُ عَلَـى مِثْلِـهِ فِـي الأرضِ مِـنْ حَـافٍ وَمِـنْ نَاعِـلِ
كَـانَ إِذَا شُـبَّتْ لَـهُ نَـارُهُ يَرْفَعُهَـا بِالسـند الْغاتِـلِ
كَيْمَـا يَرَاهَـا بَـائسٌ مُرْمِـلٌ أَوْ فَـرْدُ قَـوْمٍ لَـيْسَ بِالآهِـلِ
يُغلِـي بَنِـيء اللَّحْـمِ حَتَّـى إذا أَنْضِـجَه لَـمْ يُغْـلِ عَلَـى آكِـلِ

أَعْنِـــي الَّـــذِي أَسْـــلَمَنَا هُلْكُـــهُ لِلـــزَّمَنِ الْمُسْـــتَخْرِجِ المْاحِـــلِ [١٢]

ونلحظ في هذه المقطوعة الطريقة الجاهلية في الرثاء وهي وصف المرثي بصفات الكرم وعلو سناء ناره ودوام اشتعالها وعراقة النسب من أمه وأبيه ونجابة الأصل ذلك لأن النجاشي شاعرٌ مخضرم.

وفي رثاء الحسن (عليه السلام) يقول[١٣]: ابن الحنفية.

أَأدهَنُ رَأْسَي أَمْ تَطَيبُ مجَالَسِي وَخَـــدّكَ مَعْفُـــورٌ وَأُنْـــتُ ســـليبُ؟
أَأَشْرَبُ مَاءَ المُزنِ مِنْ غَيْرِ مِائه وَقَـدْ ضِـمْنَ الأحشـاء مِنْـكَ لَهِيـبُ
سَـأَبْكِيكَ مَـا نَاحِـت حَمَامَـةٌ أَيْكَـةٌ وَمَـا اِخْضَـرَّ فِـي دَوْحِ الْحجَّـازِ قَضِـيبُ
غَرِيـبٌ وَأَكْنَـاف الْحجَّـازِ تحُوطـهُ الَا كُـلُّ مَـنْ تَحْـتَ التُّـرَابِ غَرِيـبُ

يختلط رثاء أهل بيت النبوة بلوعة وحرارة نلحظها في قصائد الرثاء عموما وفي قول ابن الحنفية ديمومة هذه الحرارة التي لا تنطفئ فهو يرثي أخا وإماما يمثل كل شيء مهم في حياته ووجوده.

يغلب على القصيدة الرثائية الأسلوب السهل الواضح وألفاظ موحية ،مع صدق التجربة والاحساس العالي. ومن نافلة القول: إن القصائد الشعرية وإن توافقت في الغرض والبحر الشعري تظل لكل قصيدة خصوصية وسمة تفرقها عن غيرها من القصائد كأن القصائد بصمات أصابع، وهذه المقطوعة التي بين أيدينا تتميز بحرارتها وعلو كمية الحزن فضلاً عن الإيقاع الذي يتولد من كثرت حروف المد فقد تكررت حروف المد ما يقرب عشرين مرة مما يجعلها قصيدة ندب مبكية.

ومن رثاء أهل البيت رثاء الحسين (عليه السلام) وهو أكثر شخصية قد رثيت لعظيم موقفه ومقتله، ويشكل رثاء الحسين (عليه السلام) اتجاها خاصا كما في المدائح النبوية لخصوصية الإمام الحسين ولخصوصية الرثاء فيه، فإن رثاء الحسين والبكاء عليه هو عبادة يثاب عليها الراثي.

والاتجاه الحسيني يتسم بالتجديد في كل مرحلة من مراحل ذكراه ،لأن ذكرى الحسين تتجدد ومعها تتجدد فنيات القصيدة الحسينية إذ الطف صرخة مدوية على مر الأزمان، وقد رثى الشعراء الحسين (عليه السلام) بعد مقتله ثم جاء رثاؤه متتابعاً مع خشية الشعراء من بني أمية.

ومن الطبيعي أن يكون الرثاء الأول من نساء الإمام الحسين (عليه السلام) وأقربائه فيقول المسعودي: ((ولما قتل الحسين ... خرجت بنت عقيل بن أبي طالب في نساء من قومها ... وهي تقول[١٤]:

مَاذَا تَقُولُونَ إِنَّ قَالَ النَّبِيُّ لَكُمْ: مَاذَا فَعَلْتُم وَأَنْتُمْ آخرُ الْأُمَمِ
بعترتِي وَبِأَهْلِي بَعْدَ مُفْتَقَدِي نصْفٍ أسارى وَنصْفٍ ضرّجُوا بِالدَّمِ
مَا كَانَ هَذَا جَزَائِي إِذْ نَصَحتُ لَكُمْ أَنْ تُخلفُونِي بِشَرٍّ فِي ذَوِي رَحْمِي

وكذلك ويلاحظ على المراثي التي أعقبت استشهاد الإمام الحسين (عليه السلام) أنها في الغالب كانت مقطوعات أو قصائد قصيرة ومن دون مقدمات وهي ظاهرة طبيعية في وقت كانت عيون السلطة الأموية ترقب كل من تشك في ولائه لها ... ثم إن تلك المراثي كانت استجابة فعلية تعبر عن لحظات الحزن في نفوس أشجاها الأسى))[١٥].

وكذلك في قول الشاعر: مسلم بن قتيبة مولى بني هاشم[١٦]:

عَيْنَي جُودِي بِعَبْرَةٍ وَعَوِيلِ وَانْدُبِي إِن نَدَبتِ آلَ الرَّسُولِ
وَانْدُبِي تِسْعَةً لِصُلبِ عَلِيٍ قَدْ أُصِيبُوا، خَمْسَةً لعقيلِ
وَسَمِيُ النَّبِي غُودِرَ فِيهُمْ قَدْ عَلوهُ بِصَارِمٍ مَصْقُولِ
وَانْدُبِي كَهلَهُم فَلَيْسَ إِذَا مَا عُدّ فِي الْخَيْرِ كَهْلَهُمْ كَالْكُهُولِ
لَعَنَ اللهُ حَيْثُ كَانَ زِيَادَا وَابْنَهُ وَالْعَجُوزَ ذَاتُ الْبُعولِ

ويعود ترك المقدمات في الرثاء للعامل النفسي للشاعر أو السامع فلا يحتاج الشاعر والسامع مقدمة تثير عواطفه أو تهيئ نفسه.

ونخلص إلى أن المراثي امتازت بصدق المعاني وحرارة العاطفة وكانت تصدر من عقيدة راسخة حبا وإيمانا بأهل البيت[١٧].

كما اختلطت بعض مراثي أهل البيت بتحري السلطة والحث على الثورة من جديد، كما اتسمت قصائد رثاء أهل البيت بكثرة تضمين الحديث النبوي والقرآنية التي تتضح من القصائد فيعمد الشاعر الى الأخذ من القرآن بشكل غير مباشر لكنه ملحوظ واضح ففي ذلك تناص مع قوله تعالى: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[١٨].

وبهذا انطلقت الألسن الشاعرة ترثي ابن بنت رسول الله (ﷺ)، فتصور أسفه، وحزنه على سبطه واحتجاجه على أمته وتسجل في صراحة وعنف جور السلطة الغادرة وانتهاكها حرم الله[١٩].

وإذا كان رثاء أهل البيت في صدر الاسلام على اعتبار ما يتمتعون به من مكانة إسلامية جليلة ومكانة سامية عظيمة كونهم رحم النبي وآله وأصحاب رسول الله فإن رثاءهم (عليهم السلام) في العصر الأموي صار باعتبارهم أئمة يجب إتباعهم وأن مذهب التشيع المذهب الذي لا يغني عنه مذهب آخر هذا ما أدى إلى إضفاء صبغة مذهبية نلمحها عند الكميت (رحمه الله) والسيد الحميري.

٢- رثاء الخلفاء والوزراء:

نحن نقبل هذه الألقاب مع شيء من التجوّز في هذه المفاهيم وعلى الرغم من تداخل هذه المفاهيم لكنه يدل على المراد، فالفرزدق يرثي عمر بن عبد العزيز ذلك أن تقواه وعدله وزهده جعلت الشعراء يستثيرون كل الفضائل الإنسانية في رثائه يريدون بذلك الوفاء بما في ذواتهم من تقدير وإكبار له، إذ يقول[٢٠]:

أَقُولُ لَمَّا نَعَى النَّاعُونَ لِي عُمُرَا ... لقَد نَعَيْتُم قِوَامَ الْحَقِّ وَالدِّينِ
قَدْ غِيبَ الرَّامِسُونَ الْيَوْمَ إِذْ رَمَسُوا ... بِدَيْرِ سَمْعَانِ قِسْطَاسَ الْمُوَازِينِ
لَمْ يُلْهِهِ عُمَرَهُ عَيْنٌ يُفَجِّرُهَا ... وَلَا النَّخِيلُ وَلَا رَكْضُ الْبَرَاذِينِ

إن عمر بن عبد العزيز كان عادلا وعرف عنه الحق ولذا فحضي بمكانة تاريخية مهمة ونلحظ قلة رثاء خلفاء بني أمية مقارنة بالخلفاء العباسيين مثلا لأن دولة بني أمية بلغت في الظلم والاجحاف في المسلمين إن الشاعر مهما كان يتكسب في شعره أو يتملق للحكام لكن لا يمكن له أن يغض الطرف عن إحساس عاشه صادق فالذي دفع الفرزدق الى الرثاء محض إحساسه وإخلاصه للحق وحبا بالعادل والعدل.

وكان الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط أخا عثمان من أمه فسُمع في الليلة الثانية من مقتل عثمان يندبه، وهو يقول[٢١]:

بَنِي هَاشِمٍ إِنَّا وَمَا كَانَ بَيْنَنَا ... كَصَدْعِ الصَّفَا مَا يُومِضُ الدَّهْرُ شَاعَبُهُ
بنِي هَاشِمٍ كَيْفَ الْهَوَادَةُ بَيْنَنَا ... وَسَيْفُ اِبْنِ أَرْوَى عِنْدَكُمْ وحرائبُهُ
بنِي هَاشِمٍ رَدُّوا سِلَاحَ اِبْنِ اختكم ... وَلَا تُنْهبُوهُ لَا تَحَلُ مناهبُهُ

غَـــدرْتُم بِـــهِ كِيمَـــا تَكُونُـــوا مَكَانَـــهُ كَمَـــا غَـــدَرَتْ يَوْمَـــا بِكُسْـــرَى مرازبُـــهُ

يصح قولنا استنادا إلى هذه النصوص وغيرها إن قصيدة الرثاء مضنة لمعاني كثيرة وأغراض بعيدة فهي تستوعب المدح لما بينهما من مناسبة إذ الرثاء في أصله مدح ،والحكمة لأن الإنسان أوعظ ما يكون وهو ميت فتصدر الحكمة أثناء الرثاء، كما تدخل الحماسة للأخذ بثأر المقتول كما نلحظه في رثاء حركة التوابين. والقصيدة الرثائية تحمل في طياتها الهجاء، لأن الشاعر يكون مشدودا للمعاني ومناسبة بعضها بعضاً، وتعالق السابق باللاحق، أكثر مما تفرضه المعايير الفنية للقصيدة.

كما قال حسان: في عثمان بن عفان وهجاء الانصار وتخلفهم عن نصرته[٢٢]:

وَتَخَاذَلَـــتْ يَـــوْمَ الْحَفِيظَـــةِ إِنّهُـــمْ لَيْسُـــوا هُنَـــا لَكُـــمْ مِـــنَ الأخيـــارِ

وَنَسُـــوا وَصَـــاةَ مُحَمَّـــدٍ فِـــي صِـــهْرِهِ وَتَبَـــــدَّلُوا بِـــــالْعِزِّ دَارَ بَـــــوارِ

فنلحظ تداخل بين قصيدة الرثاء والأغراض الأخرى.

٣- رثاء القادة:

القائد هو مَن عُرف بالفروسية والشجاعة والبسالة وقيادة الجيوش. وغالبا ما يكون رثاء القادة من الجنود أو من نظرائه من القادة، أو أن يكون القائد يتمتع بمكانة دينية فيرثى من يذهب مذهبه ويعتقد معتقده. ومن ذلك قول الشاعر: في رثاء هانئ بن عروة ومسلم بن عقيل (رضي الله عنهما)[٢٣]:

إِذَا كُنْتِ لَا تَدْرِين مَا الْمَوْتُ فَأَنْظِرِي إلـــى هَـــانِئ فِـــي السُّـــوقِ وَابْـــنِ عقيـــلِ

إِلَـى بطْـلٍ قَـدْ هَشَّـمَ السَّـيْفُ وَجِهَـهُ وَآخـــرَ يَهْـــوِي فِـــي طِمَـــارِ قَتِيـــلِ

أَصَـــابَهُمَا أَمْـــرُ الْأَميـــرِ فَأَصْـــبَحَا أَحَادِيـــثَ مَـــنْ يَسْـــعَى بِكُـــلِّ سَـــبِيلِ

تَـــرَى جَسَـــدَا غَيّـــرَ الْمَـــوْتُ لَونَـــهُ وَنَضَـــحَ دَمٌ قَـــدْ سَـــالَ كُـــلُّ مَسِـــيلِ

أَيَتـــرك أَسْـــمَاء المهـــايج آمنَـــا وَقَـــدْ طَلَبَتْـــهُ مَـــذْحِجٌ بـــذحُول

فَتًـــى هُـــوَ أَحْيَـــى مِـــنْ فَتَـــاةٍ حَيِيَّـــةٍ وَأُقَطِّـــعُ مِـــنْ ذِي شُـــفْرَتَيْنِ صَـــقِيلِ

ومنه: رثاء علي (عليه السلام) المرقال ووقف عليه فدعا له وترحم له[٢٤].

جـــزى اللهُ خَيْـــرَا عَصَـــبَةً أَســـلميةً صِـــبَاحُ الْوُجُـــوهِ صُـــرِّعُوا حَـــوْلَ هَاشِـــمِ

يَزِيـــدُ وَعَبْدُاللَّـــهَ بشـــرٌو مَعْبَـــدٌ وَسُـــفْيَانَ وَابْنَـــا هَاشِـــمٍ ذِي الْمَكَـــارِمِ

وَعُـــرْوَةُ لَا يَنْفَـــدُ ثَنَـــاهُ وَذِكْـــرُهُ إِذَا اخْترطَـتْ يَوْمَـا خِفَـافُ الصَّـوَارِمِ[٢٥]

ومنه قول: الحجاج بن غزية الأنصاري في رثاء عمار بن ياسر (ﷺ)[٢٦].

يَـا لِلرجَـالِ لِعَـيْنٍ دَمْعُهَـا جَـارِي ... قَـدْ هَـاجَ حُزْنِـي أَبُـو الْيَقْظَـانَ عمَّـارُ
أَهَـوَى إِلَيْـهِ أبـو حَـوَّا فَوَارِسِـهِ ... يَـدْعُو السُّـكُونَ وَلِلْجَيْشَـيْنِ إِعْصَـارُ
فَاخْتَـلَّ صَـدْرُ أَبِـي الْيَقْظَـانَ مُعْتَرِضًـا ... لِلـرمْحِ، قَـدْ وَجَبَـتْ فِينَـا لَـهُ النَّـارُ
اللهُ عَـنْ جَمْعِهِـمْ لَا شَـكَّ كَـانَ ... عَفـا أَتَـتْ بِـذَلِكَ آيـاتٌ وَآثَـارُ
مَـنْ يُنـزِعُ اللهُ غُـلًّا مِـنْ صُـدُورِهِمْ ... عَلَـى الْأُسْـرَةِ لَـمْ تَمْسَسْـهُم النَّـارُ
قَـالَ النَّبِـيُّ لَـهُ تَقْتُلُـكَ شِـرْذِمَةٌ ... سِـيطَتْ لُحُـومَهُمْ بِـالْبَغِي، فُجَّـارُ
فَـالْيَوْمَ يعَـرِفُ أَهْـل الشـام أَنَّهُـمْ ... أصـحاب تِلْـكَ وَفِيهَـا النَّـارُ وَالْعَـارُ

ويـدخل فـي هـذا البـاب رثـاء الـوزراء ومـن ذلـك رثـاء الشـعراء البرامكـة بعـد أن أطاح بهم هارون الرشيد، وأوقع بهم وقيعة بأساء. رثاهم أجشع السُلمي[٢٧]:

أَلَآنَ ارْحنَـا وَاسْـتَرَاحَتْ رِكَابُنَـا ... وَأَمْسَـكَ مَـنْ يُجْـدِي وَمَـنْ كَـانَ يَجْتَـدِي
فَقُـلْ لِلْمَطَايَـا قَـدْ أَمنـتِ مِـنَ السُّـرَى ... وَطَـيِّ الفيـافي فَدْفَـدَا بَعْـدَ فَدْفَـدِ
وَقُـلِ الْعَطَايَـا بَعْـدَ فَضْـلٍ تَعَطَّلِـي ... وَقُـلْ لِلرَّزَايَـا كُـلُّ يَـوْمٍ تَجَـددِي
وَدُونَـكَ سَـيْفًا برمكيـاً مُهَنَّـدًا ... أُصِـيبَ بِسَـيْفٍ هَاشِـمِي مُهَنَّـدِ

يطلـق الشـاعر صـوته ليبـين الفـرق بـين أمـس والآن، إذ لـيس هنـاك شـجاع بعـد الفضـل بـن الربيـع يطـوي، مـا كـان الربيـع يطويـه مـن فيـافي، والمطايـا قـد اسـتراحت مـن همّـة ذلـك الرجـل المقـدام، والعطايـا بعـده لـم تعطـي فـالجود مـات بمـوت الفضـل، والرزايـا لـم تجـد يـداً تـدفعها غيـر يـد الفضـل، لـذا فـإن الشـاعر حـزين، أنـه لا يرثـي إنسـاناً عاديـاً بـل يرثي لنا مجتمعاً كاملاً.

٤- رثاء الأبناء:

يعد رثاء الابناء من أهم موضوعات الرثاء الاجتماعي، وأبرز موضوع فيه كما يحتل أكثر الصفحات المحزونة من رثاء الأهل والأقارب جميعاً، فضلاً عن هذه الحرقة ولهيب الحزن ونيران الألم التي تفوح بها قصائد الرثاء في الابناء[٢٨].

ورثاء الأبناء ((من أصدق أنواع الرثاء لأنه يعبر عن زفرات الشاعر الملتهبة على فلذة كبد ذهبت ولن تعود، فظاهرة رثاء الأبناء ليست بدعاً في أدبنا العربي، وإنما هي ظاهرة شعرية موجودة منذ بدا التأريخ لهذا الأدب))[٢٩].

ففي حرب صفين سُمعت امرأة من أهل العراق ترثي أبناءها الثلاثة إذ تقول:

عَيْنـــيَّ جُـــودَا بِـــدَمْعٍ سَـــرِبْ عَلَـــى فَتِيَـــةٍ مِـــنْ خِيَـــارِ الْعـــرَبِ
وَمَـــا ضَـــرَهمْ غَيْـــرُ حُسْـــنِ النُّفُـــوسِ بِـــأَيِّ امـــرئ مِـــنْ قُـــرَيْشٍ غلـــب

والأم المفجوعة لا ترى في قتل أولادها سبباً مقنعاً فليس لهم في الحرب ناقة ولا جمل، ولذا فلم تجد السلوى في مصابها فلا تجد من يرد عليها ولديها، كما لا تجد من يشفي حزنها، وتقول اخرى: في ابنين لها قد قتلا: وتندم على رحيل ابنائها عسكراً في هذه الحرب، لأنها فتنة لا تكاد تنطفئ[٣٠]:

شَـــهدْتُ الْحُـــروبَ فَشَـــيِّبنِنِي فَلَـــم أرى يَوْمًـــا كَيَـــوْمِ الْجَمَـــل
أَضَـــرَّ عَلَـــى مُـــؤْمِنِ فِتْنَـــةٍ وَأَقْتَلَـــــهُ لِشِـــــجَاعٍ بَطـــــل
فَلَيْـــتَ الظغينـــةَ فِـــي بَيْتِهَـــا وَلَيْتَـــكَ عَسْـــكَرٌ لَـــمْ تَرْتَحِـــل

فلحقها الندم على التحاق أولادها في الحرب.

ومن ذلك أن جويرية أم ابني عبيد الله بن العباس اللذين قتلهما بسْرٌ تدور حول البيت وهي تقول[٣١]:

هَـا مَـنْ أَحَـسَّ مِـنَ اِبْنِـي اللَّذَيْنِ هُمَـا كَالـدُّرَّتَيْنِ تشَـظّى عَنْهُمَـا الصَّـدَفُ
هَـا مَـنْ أَحَـسَّ مِـن اِبْنِـي اللَّذَيْنِ هُمَـا سـمْعِي وَقَلْبِـي، فَعَقْلِـي الْيَـوْمَ مُخْتَطَـفُ
هَـا مَـنْ أَحَـسَّ مَـنْ ابْنِـي اللَّذَيْنِ هُمَـا مُـخَّ الْعِظَـامِ فَمُخِّـي الْيَـوْمَ مزدهـفُ
نُبِّئْتُ بِسرًا، وَمَـا صَـدَّقتُ مَـا زَعِمُـوا مِـنْ قَـوْلِهِمْ وَمَـنِ الْإِفْـكِ الَّـذِي وَصَـفُوا
أَنْحَـى عَلَـى ودجَـي اِبْنِـيّ مُرْهَفَـةً مَشْـحُوذَةً، وَكَـذَاكَ الْإِثْـمُ يُقْتَـرَفُ

إننا نشعر في هذه المقطوعة أن رثاء الأم في أبنائها، هو رثاء الأمومة الباكية التي تنتحب والدموع التي تجري، والقلب المفطور والنفس المفجوعة ومع كل هذه النداءات في المقطوعة لكنها لا تجد من يرد عليها ولديها، ولا تجد شفاء لحزنها وغليلها في البكاء، فما روحها وسمعها وبصرها وعقلها، فما ترك لها المصاب عقلاً يصبرها، ولا سلوة تسلي بها النفس.

الرثاء هنا في المقطوعة تأبين وندب، وبكاء وحسرة وعويل، ووصف لعظم المصيبة، وهول الفجيعة.

٥- رثاء الزوجات والأزواج:

تأنف العرب من رثاء المرأة عموماً، ويعيبون على الرجل الجزع على المرأة، وقد وصفت العرب نفسها بالجلادة والصبر، فلا يتناسب ذلك معهم، كما أن الرثاء يعد فضيحة للمرأة يقول: الفرزدق في ذلك، معيباً جرير رثاءه زوجته[٣٢].

ورثيتَهـــا وفضـــحتَها فـــي قبرِهـــا مـــا مثـــلُ ذلـــكَ تفعَـــلُ الأخيَـــارُ

ولهذا جاء رثاء الزوجة أو المرأة عموماً نادراً في المدونة الشعرية العربية، وحتى الذي وصلنا من قصائد رثاء الزوجة نلمح فيه خشية من الجزع عليها ويبدو فيها الشاعر متماسكاً في حزنه، كما هناك مسوغات لتلك القصائد فجرير سوغ لنفسه رثاء زوجته لأنها كبيرة في السن كما لم يتجرأ أن يفرد لها قصيدة كاملة[٣٣]، ولعلنا نقف على جذور ذلك الرثاء، وبداية كسر هذه العادة التي اعتادها العرب عندما يرثي علي (عليه السلام) فاطمة الزهراء (عليها السلام). إذ يقول[٣٤]:

لِكُـــلِّ اِجْتِمَـــاعٍ مِـــنْ خَلِيلِـــينِ فرقَـــةٌ وَكُـــلُّ الَّـــذِي دُونَ الْمَمَـــاتِ قَلِيـــلُ
وَإِنَّ اِفْتِقَـــادَي فَاطِمًـــا بَعْـــدَ أَحْمَـــدٍ دَلِيـــلٌ عَلَـــى أَنَّ لَا يَـــدُومُ خَلِيـــلُ[٣٥]

ونلحظ أن الإمام علياً (عليه السلام) لم يظهر جزعه، بل يبدو متماسكاً، فهو مؤمن بذلك الفراق المحتم، والموت الذي لا يدع احداً. ومن رثاء الأزواج قول: نائلة بنت الفرافصة في مقتل عثمان بن عفان[٣٦]:

ألا إنَّ خيـــرَ النـــاسِ بعـــدَ ثلاثـــةٍ قتيـــلُ التجيبـــيِّ الـــذي جـــاء مـــن مصـــرِ
ومـــالِيَ لا أبكـــي وتبكـــي قرابتـــي وقـــد غيبـــوا عنـــي فضـــولَ أبـــي عمـــرو

كثيرا ما نجد النساء نادبات يؤلفن الأشعار ويبكين موتاهم بألم وحرقة، إن عامة العرب تقول الشعر ولو عدَدْنا قائل البيت والبيتين شاعرا لكانت أمة العرب شعراء كلها ولهذا فإن زوجة عثمان لم تكن شاعرة لكنها خطيبة مفوهّة ولذا لا نجد في البيتين حسرة كبيرة أو طول نفسها في القصيدة.

وقد رثت عاتكة بنت زيد زوجها الزبير، وقد قتله عمرو بن جُرموز، وكان الزبير في صلاته يؤم الناس، إذ تقول فيه[٣٧]:

غَـــدرُ اِبـــن جرمـــوزٍ بفـــارسِ بهـــمةٍ يـــومَ اللّقـــاءِ وكـــان غيـــر معـــرّدِ
يـــا عمـــرُو لَـــو نبّهتـــهُ لَوجدتـــهُ لا طائِشـــاً رَعـــشَ الجنـــانِ ولا اليـــدِ
هَبلتـــك أمُّـــكَ أن قتـــلتَ لمســـلماً حقّـــت عليـــكَ عقوبـــةُ المتعمّـــدِ

مـــا إنْ رأيـــتُ ولا سَـــمِعتُ بمثلـــهِ فيمـــن مَضـــى ممّـــن يَـــروحُ وَيغتـــدي

على الرغم مما عرف عن رثاء الزوجات الحزن والحسرة، وحرارة البكاء، فهن يذرفن الدمع على أزواجهن، ويتحسرن لفقدهم، لكن هذه المقطوعة لا تحمل سوى تعداد صفاته ببرودة، وهذا ربما يرجع ان عاتكة لم تكن شاعرة، ولذا اخذت تعدد مناقبه بعيداً عن حسرتها عليه، إنها فقدت فارساً يصعب على الفرسان ملاقاته، ولم يكن جباناً ولا سهلاً عند الملاقاة، لكن غدر القاتل مكنه منه.

ويكاد يدخل في هذا رثاء يزيد بن عبد الملك جاريته(حبابه) وجزعه عليها، فدفنها وأقام على قبرها فقال[٣٨]:

فَـإِنَّ تَسَـلُ عَنْـكِ الـنَّفْسُ أَوْ تَـدْعُ الْهَـوَى فَبِالْيَـــأْسِ تَسْـــلُو الـــنَّفْسُ لَا بِالتَجَلُّـــدِ

فصدق العاطفة واضحة، وجزعه ظاهر لا يخفى، ويرى أن الصبر حريّ أن يسلي نفسه، والأمر موكول لليأس والقنوط.

٦- رثاء المدن:

ظهر في العصر العباسي لونٌ جديد من الرثاء هو رثاء المدن، وفي ذلك إشعار في خراب المدن أو غزوها أو ضياعها، كما فيه إشعار بارتباط الشاعر بالمكان ومدينته، فقد عرف عن العربي ترحاله الدائم الذي لا يكاد يستقر في موضع. ونتيجة للفتوحات الإسلامية وتمصر الأمصار، وتطور الحياة الاجتماعية، أخذ العرب يشيدونها لجعلها موطناً لهم، وكان موقف العربي منها منشطراً الأول: يرفضها إحساساً بالغربة وحنيناً إلى البداوة والصحراء، والآخر فهو القبول فيها موطناً جديداً يفضله على البداوة[٣٩].

ونقصد بالمدينة عكس البداوة ذلك التفرد الذي يقصي الإنسان فريداً عن مجتمعه وبني جنسه، فالمدينة هي تلك المراكز التي تجمع خليطاً من الناس يضم بين جنباته طبقات متباينة من الناس يغلب عليها الطابع المادي بشكل عام[٤٠].

إن هذا اللون من الرثاء يكشف عن مدى الارتباط الإنساني بالمكان بوصفة دلالة انتماء ديموغرافي يستمد منه الإنسان هويته، وبسماته الشخصية التي تفرضها سلطة المكان، لأن المكان بطبيعته سلطوي يؤثر على البشر بمقدار ما يؤثرون فيه. فلا نجد مكاناً فارغاً أو سلبياً، ففي الحقيقة للمكان سلطة في أخذ السمات الفردية وصهرها من جديد ليعيدها لهم أيديولوجيا، ومن أكثر المدن التي رثيت هي بغداد، لما

كـان يتمتـع أهلهـا مـن عـيش رغيـد ومجـد تليـد وحضـارة وفـن وثقافـة، فهـي مقصـد لجميـع العظماء فمن النادر أن نجد عالماً لا يجيء بغداد، فهي عزيزة على أهلها[٤١].

ولما حصل النزاع على الخلافة بين الأمين والمأمون، وتطورت الأحداث عندما حقق الأمين نصراً بقيادة جنوده في معركة قصر صالح، فمارسوا ـ في نشوة حملة عارمة من السلب والنهب والقتل روعت الناس وغادر على إثرها الكثير من سكان بغداد مدينتهم طلباً للسلام، والأمين غارق في سكره ولهوه[٤٢].

فقال الشاعر المعروف بعلي بن أبي طالب راثياً بغداد.

تَقَطَّعَـتِ الأَرحَـامُ بَـيْنَ الْعَشَـائِرِ ... وَأَسْـلَمَهُمْ أهْـلُ اِلْتَقَـى وَالْبَصَـائِرِ
فَـذَاكَ اِنْتِقَـامُ اللهِ مِـنْ خَلقِـهُ بِهِـم ... لَمَـا اِجْتَرَمُـوهُ مِـنْ رُكـوبِ الْكَبَـائِرِ
فَـلَا نَحْـنُ أَظْهَرنَـا مِـنَ الـذَّنْبِ تَوْبَـةً ... وَلَا نَحْـنُ أَصْـلَحنَا فَسَـادَ السَّـرَائِرِ
وَلَـمْ نَسْـتَمِعْ مِـنْ وَاعِـظٍ وَمُـذَكَّرٍ ... فَيُنْجِـعُ فِينَـا وَعْـظَ نَـاهٍ وَآمِـرِ
فَنَبْكِـي عَلَـى الْإِسْـلَامِ لَمَـا تَقَطَّعَـتْ ... رَجَـاهُ وَرَجّـى خَيْرَهَـا كُـلُّ كَـافِرِ
فَأَصْـبَحَ بَعْـضُ النَّـاسِ يَقْتُـلُ بَعْضَـهُمْ ... فَمِـنْ بَـيْنَ مَقْهُـورٍ ذَلِيـلٍ وَقَـاهِرِ
وَصَـارَ رَئِـيسُ الْقَـوْمِ يَحْمِـلُ نَفْسَـهُ ... وَصَـارَ رَئِيسَـاً فِـيهم كُـلُّ شَـاطِرِ
فَـلَا فَـاجِرٌ لِلْبَـرّ يَحْفَـظُ حُرْمَـةً ... وَلَا يَسْـتَطِيعُ الْبَـرُّ دَفَعَـا لِفَـاجِرِ
فَمِـنْ قَـائِمٍ يَـدْعُو إِلَـى الْجَهْـدِ عَامِـدًا ... وَمِـنْ أَوَّلٍ قَـدْ سَـنَّ عَنَـا لِآخِـرِ
تَـرَاهُم كَأَمْثَـالِ الـذِّئَابِ رَأَتْ دَمًـا ... فَأَمّتـهُ لَا تَلْـوِي عَلَـى زَجْـرِ زَاجِـرِ
إِذَا هـدم الْأَعْـدَاءُ أَوَّلَ مَنْـزِلٍ ... بِسَـعِيِّهِمُ قَـامُوا بِهَـدْمِ الأواخـرِ
فأصـبحت الأغتـامُ بـين بيـوتهم ... تَحُـثُّهُمْ بِالْمُرْهَفَـاتِ الْبَـوَاتِرِ
وَأَصْـبَحَ فُسَّـاقُ الْقَبَائِـلِ بَيْـنَهُمْ ... تَشُـدُ عَلَـى أَقْرَانِهَـا بِالْخَنَـاجِرِ
فَنَبْكِـي لِقَتْلَـى مِـنْ صَـدِيقٍ وَمـن أَخٍ ... كَـرِيمٍ، وَمِـنْ جَـارٍ شَـفِيقٍ مُجَـاوِرِ
وَوَالِـدَةٍ تَبْكِـي بِحُـزْنٍ عَلَـى اِبْنِهَـا ... فَيَبْكِـي لَهَـا مِـنْ رَحْمَـةٍ كُـلُّ طَـائِرِ
وَذَاتِ حَلِيـلٍ أَصْـبَحَتْ وَهِـي أَيِّـمٌ ... وَتَبْكِـي عَلَيْـهِ بِالـدُّموعِ الْبَـوَادِرِ
تَقُـولُ لَـهُ: قَـدْ كُنْـتَ عِـزًّا وَنَاصِـرًا ... فَغُيِّـبَ عَنِـي الْيَـوْمَ عِـزِّي وَنَاصِـرِي
وَأَبْكِـي لِإِحْـرَاقٍ وَهَـدْمِ منَـازِلٍ ... وَقَتْـلٍ وإنهـابِ النهَـى وَالـذخَائِرِ
وَإِبْـرَازِ رَبَّـاتِ الْخُـدُورِ حَوَاسِـرًا ... خَـرَجنَ بِـلَا خُمْـرٍ وَلَا بِمَـآزِرِ
تَرَاهَـا حَيَـارَى لَـيْسَ تَعَـرفُ مَـذْهَبًا ... نَـوَافِرَ أَمْثَـالِ الظبَـاءِ النَّـوَافِرِ

كَـأَن لَـمْ تَكُـنْ بَغْـدَادُ أَحْسَـنُ مَنْظَـرًا ... وَمَلْهَـــىً رَأَتْـــهُ عَـــيْنُ لَاهٍ وَنَـــاظِرِ
بَلَـى، هَكَـذَا كانـت فَأَذْهَـبَ حُسْـنَهَا ... وَبِـددَ مِنْهَـا الشَـمْلَ حُكْـمُ الْمَقَـادِرُ
وَحَـلّ بِهُـمْ مَـا حَـلَّ بِالنَّـاسِ قَـبلَهُم ... فَأَضْـحَوْا أَحَادِيثًـا لِبَـادٍ وَحَاضِـرِ
أَبَغْـدادُ يـا دَارَ المُلـوكِ وَمُجتَنـى ... صُـنوفِ المُنـى يـا مُسـتَقَرَّ المَنـابِرِ
وَيـا جَنَّـةَ الـدُنيا وَيـا مَطلَـبَ الغِنـى ... وَمُسـتَنبَطَ الأَمـوالِ عِنـدَ المُتـاجِرِ
أَبِيْنِـي لَنَـا: أَيْـنَ الَّـذِينَ عَهِـدَتُهُمْ ... يَحُلُّـونَ فِـي رَوْضٍ مِـنَ الْعَـيْشِ زَاهِـرِ؟
وَأَيْـنَ الْمُلُـوكِ فِـي الْمُوَاكِـبِ تغتـدِي ... تُشَـبَّهُ حُسْـنًا بِـالنُّجُومِ الزَّوَاهِـرِ؟
وَأَيْـنَ الْقُضَـاةِ الْحَـاكِمُونَ بِـرَأْيِهِمْ ... لِـوَرْدٍ أُمُـورٍ مُشْـكِلَاتِ الْأَوَامِـرِ؟
أَوِ الْقَـائِلُونَ النَّـاطِقُونَ بِحُكْمَـةٍ ... وَرَصْـفَ كَـلَامٍ مِـنْ خَطِيـبٍ وَشَـاعِرِ
وَأَيْـنَ مَـرَاحٌ لِلْمُلُـوكِ عَهِـدَتُهَا ... مُزَخْرَفَـةً فِيهَـا صُـنُوفُ الجـواهِرِ
تُـرشُ بِمَـاءِ الْمَسْـكِ وَالْـوَرْدِ أَرْضُـهَا ... يَفُـوحُ بِهَـا مـن بَعْـدِ ريـحِ الْمَجَـامِرِ
وَرَاحَ النـدَامَى فِيـهِ كُـلَّ عَشِـيَّةٍ ... إِلَـى كُـلِّ فَيَّـاضٍ كَـرِيمِ الْعَنَاصِـرِ
وَلِهُـوُ قِيَـانٍ تَسْـتَجِيبُ لِنَغْمِهَـا ... إذا هُـوَ لَبَّاهَـا حَنِـينُ الْمَزَامِـرِ
فَمَـا لِلْمُلُـوكِ الْغِـرِ مـن آلَ هَاشِـمٍ ... وَأَشْـيَاعِهم فِيهَـا اِكْتفُـوا بِالْمفَـاخِرِ
يَرُوحُـونَ فِـي سُـلْطَانِهِمْ وَكَـأَنَّهُمْ ... يَرُوحُـونَ فِـي سُـلْطَانِ بَعْـضِ الْعَشَـائِرِ
تَخَـاذُلَ عَمَّـا نَـالَهُمْ كبـراؤهم ... فَنَـالَهُمْ بِـالْكَرِهِ أَيَـدِي الْأَصَـاغِرِ
فَأُقسِـمُ لَـوْ أَنَّ الْمُلُـوكَ تُنَاصِـرُوا ... لِـذَلَّتْ لَهـا خَوفـاً رقـابُ الجبـابرِ(٤٣)

يبدأ الشاعر ببيان علة تلك الفتنة وما حصل بهم من خراب، ويرى أن ذلك انتقام الله من الغافلين الذين تمادوا في اجتراح الذنوب وارتكاب الكبائر، وفساد النفوس، وتماديهم في الغفلة فلا يسمعون عن مذكّر ولا ناصح وضياع عرى الدين، لهذا الناس تتقاتل فيما بينهم، فهم كالذئاب يأكل بعضهم بعضاً، والمقتول ليس غريباً عنهم فهو أما أخٌ أو صديق أو جارٌ، ويصور لنا مشهداً حزيناً، عندما يصف الوالدة تبكي ولدها، حتى أن الطير تبكي لبكائها والزوجة تبكي زوجها.

وهذا التنوع الذي يصوره الشاعر في صنوف القتل تارة يكون المقتول ولداً، وأخرى زوجاً، ليبين لنا اختلاف المصائب التي حلّت بهم، وألمت بأهل بغداد، بل إن هذه المصائب هتكت أستار النساء المخدرات فخرجن حواسر، حيارى لا يدرين ما يفعلن وأين المفر؟

ثم يقف على بغداد ويتذكر ماضيها فهي منظر يسر من نظر، وهي دار الملوك، ومضنة المنى، وهي جنة الدنيا، ورغيد العيش، وتاريخها التليد من قضاة وحكماء وأدباء وشعراء، وأرض المعطرة مسكاً ووروداً، ويتذكر تلك مجالس السمار والندماء، فكل ذلك ذاهب مع الأمس الغابر.

ودقة التصوير من الشاعر على الرغم من عماه يلفت النظر إلى مكانة بغداد في نفوس أهلها، وقارئ القصيدة يشعر بعظم المصيبة، وأسف النفوس على بغداد، ونبرة الحزن التي تطفو على القصيدة يجعلنا نشارك الشاعر في إحساسه آنذاك. بل أننا نقف ((أمام مخرج صورها لنا صوتاً وصورة، فعشناها حية تنبثق منها الصورة والحركة التي تزيد الشعر حياة وحيوية، وتجعله مليئاً بالحركات واللقطات المعبرة عن أحوال الناس ومشاعرهم وسلوكهم في وسط هذا الجحيم الجاثم على قلوبهم من جميع الجهات))[٤٤].

بَكَتْ عَيْنِي عَلَى بَغْدَادَ لَمَّا ... فَقَدَت غَضَارَةَ الْعَيْشِ الْأَنِيقِ
تَبَدَّلْنَا هموماً مِنْ سُرُورٍ ... وَمِنْ سَعَةٍ تَبَدلنَا بِضِيقِ
أَصَابَتْنَا مِنَ الْحُسَّادِ عَيْنٌ ... فَأَفْنَتْ أَهْلَهَا بِالْمَنْجَنِيقِ
فَقَوْمٌ أُحْرِقُوا بِالنَّارِ قَصْرًا ... وَنَائِحَةٌ تَنُوحُ عَلَى غَرِيقِ
وَصَائِحَةٌ تَنَادِي: يَا صَحَابِي ... وَقَائِلَةٌ تَنَادِي: يَا شَقِيقِي
وَحَوْرَاءُ الْمَدَامِعِ ذَاتُ دَلٍّ ... مُضَمَّخَةُ المجاسدِ بِالْخَلُوقِ
تُنَادِي بِالشَّفِيقِ، فَلَا شَفِيقٌ ... وَقَدْ فُقِدَ الشَّفِيقُ مَعَ الرَّفِيقِ
وَقَوْمٌ أُخْرَجُوا مِنْ ظِلِّ دُنْيَا ... مَتَاعُهُم يُبَاعُ بِكُلِّ سُوقِ
وَمُغْتَرِبٌ بَعِيدُ الدَّارِ مُلْقًى ... بِلَا رَأْسٍ بِقَارِعَةِ الطَّرِيقِ
تَوَسَّطَ مِنْ قِتَالِهِمْ جَمِيعًا ... فَمَا يَدْرُونَ مِنْ أَيِّ الْفَرِيقِ
فَلَا وَلَدٌ يُقِيمُ عَلَى أَبِيهِ ... وَقَدْ هَرَبَ الصَّدِيقُ عَنِ الصَّدِيقِ
وَمَهْمَا أَنْسَ مِنْ شَيْءٍ تَوَلَّى ... فَإِنِي ذَاكِرٌ دَارَ الرَّقِيقِ[٤٥]

يبكي الشاعر بغداد لما رأى من تبدل حالها وأيامها، واضحت دار همومٍ وضيق وفقر بعدما كانت دار عزّ وسرور، ذلك لأن الحساد أصابوها بعين، فما سلمت بغداد ولا أهلها، فأحرقت وضربت بالمنجنيق، وكثر القتل في أهلها بين غريق وحريق ،وجراء ذلك تشتت أهل بغداد فبعدت الأحبة وتشظت الأحباب، ولا ولد بقي مع أبيه ولا صديق مع صديقه.

المصادر واهم المراجع:

١. الأدب العربي في العصر العباسي، د. ناظم رشيد، دار الكتب، العراق، جامعة الموصل، ١٩٨٩.

٢. نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، مصر، مكتبة المثنى بغداد، ١٩٦٣م.

٣. اتجاهات الرثاء وتطوره في العصر العباسي الأول: عبد الهادي عبد النبي، ط١، ١٩٩٠.

٤. تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)، د. شوقي ضيف، ط١١، دار المعارف.

٥. الايضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، الخطيب القزويني(٧٣٩هـ)، وضع حواشيه ابراهيم شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ٢٠٠٣.

٦. مروج الذهب ومعادن الجواهر، أبي الحسن علي بن الحسين المسعودي(٣٤٦هـ)، ت: أمير مهنا مؤسسة الأعلمي، بيروت، ٢٠١٠م-١٤٣١هـ.

٧. الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي، جمع وتقديم، محمد بن رمضان شاوش، ط١، المطبعة العلوية عين قائم، ١٩٦٦.

٨. ديوان أبي الأسود الدؤلي، ابي سعيد الحسن السكري، تحقيق، محمد حسن ال ياسين، دار الهلال، ١٩٩٨م-١٤١٨هـ.

٩. ديوان النجاشي الحارثي قيس بن عمرو، تحقيق، صالح البكاري، الطيب العشاش وسعد غراب، ط١، دار الواهب، لبنان، ١٩٩٩.

١٠. الإمام الحسين بن علي في الشعر العراقي الحديث (دراسة موضوعية فنية)، علي حسين يوسف، ط١، كربلاء العتبة الحسينية المقدسة، ٢٠١٣.

١١. مراثي الامام الحسين(عليه السلام) في العصر الاموي، دراسة فنية، رسالة ماجستير، إعداد مجبل عزيز جاسم، جامعة الكوفة، ٢٠٠٥-١٤٢٦هـ.

١٢. أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثاني الهجري، عبد الحسيب طه حميدة، ط٢، مطبعة السعادة، مصر،١٩٦٨.

١٣. ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، تحقيق ، عبد الله سنده ، دار المعرفة ، لبنان ،ط١،٢٠٠٦.

١٤. ديوان الإمام علي بن أبي طالب ، جمع وتحقيق ، يحيى مراد ، مؤسسة المختار ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٦،

١٥. الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف: فدوى عبد الرحيم: رسالة ماجستير
١٦. ديوان الفرزدق، شرح: علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ط١، ١٤٠٧هـ–١٩٨٧م.
١٧. رثاء الزوجة في الشعر العربي الحديث ديوان حصاد الدمع لمحمد البيومي أنموذجاً
١٨. ديوان الإمام علي بن ابي طالب، ت: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط٣، ٢٠٠٥.
١٩. فن رثاء المدن في الشعر المغربي القديم حتى نهاية القرن الخامس الهجري
٢٠. الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر: مفيد قميحة
٢١. الفقهاء والسلطة وصناعة الحياة، رعد محمود البرهاوي، دار الكتاب الثقافي، الأردن، إربد.
٢٢. رثاء بغداد والبصرة في الشعر العباسي دراسة موضوعية وفنية: عبد الله السناني: رسالة ماجستير

هوامش البحث

(١) الأدب العربي في العصر العباسي: ناظم رشيد: ٣٤.
(٢) نقد الشعر: ١٠٠.
(٣) ينظر: اتجاهات الرثاء وتطوره في العصر العباسي الأول: عبد الهادي عبد النبي: ٦.
(٤) ينظر: الرثاء: شوقي ضيف: ١٢: ٥٤-٨٦.
(٥) ينظر: البيان والتبين: ٢: ٣٢٠.
(٦) ينظر: مروج الذهب: ٢: ٤٣٥-٤٣٦.
(٧) ينظر: الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي: ٦٢-٦٦.
(٨) ينظر: مروج الذهب: ٢: ٤٣٧.
(٩) ينظر: ديوان ابي الاسود الدؤلي: ١٥٢. مع اختلاف بالألفاظ وعدد الأبيات.
(١٠) الرثاء: ٥٩.
(١١) ينظر: مروج الذهب: ٣: ٧.
(١٢) ينظر: ديوان النجاشي الحارثي: ٥٣-٥٤. مع اختلاف بالأبيات.
(١٣) ينظر: مروج الذهب: ٣: ٧.
(١٤) ينظر: مروج الذهب: ٣: ٨٠.
(١٥) الإمام الحسين في الشعر العراقي الحديث: علي يوسف: ٢٤.
(١٦) ينظر: مروج الذهب: ٣: ٧٤.
(١٧) ينظر: مراثي الإمام الحسين في العصر الاموي: مجبل عزيز جاسم: ١٥.
(١٨) الشورى: ٢٣.
(١٩) ينظر: أدب الشيعة: عبد الحسيب طه: ١٦٠.

[٢٠]ينظر: مروج الذهب: ٣: ٢١٧. والأبيات غير موجودة في الديوان.
[٢١]ينظر: مروج الذهب: ٢: ٣٦٥.
[٢٢]ينظر: ديوان حسان: ١٢١.
[٢٣]ينظر: مروج الذهب: ٣: ٧١.
[٢٤]ينظر: مروج الذهب: ٢: ٤٠٢.
[٢٥]ينظر: الديوان الإمام علي بن أبي طالب: ت: يحيى مراد: ١٥٠.
[٢٦]ينظر: مروج الذهب: ٢: ٤٠٠.
[٢٧]ينظر: المصدر السابق: ٣: ٤١٧.
[٢٨]ينظر: اتجاهات الرثاء وتطوره في العصر العباسي الاول: ٦٢.
[٢٩]الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف: فدوى عبد الرحيم: رسالة ماجستير: ٣٨.
[٣٠] ينظر مروج الذهب: ٢: ٤١٣.
[٣١]ينظر: مروج الذهب: ٣: ٣٢.
[٣٢] ينظر: ديوان الفرزدق: ١: ٣٢٦.
[٣٣]ينظر: رثاء الزوجة في الشعر العربي الحديث ديوان حصاد الدمع لمحمد البيومي أنموذجاً: ٢٧.
[٣٤]ينظر: مروج الذهب: ٢: ٣٠٦.
[٣٥]ينظر: ديوان الامام علي بن أبي طالب: ت: عبد الرحمن المصطاوي: ١٢٢.
[٣٦] ينظر: مروج الذهب: ٢: ٣٦٤.
[٣٧]ينظر: مروج الذهب: ٢: ٣٨١.
[٣٨] ينظر: المصدر نفسه: ٣: ٢٢١.
[٣٩] ينظر: فن رثاء المدن في الشعر المغربي القديم حتى نهاية القرن الخامس الهجري : ٣٨.
[٤٠]ينظر: الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر: مفيد قميحة: ٣٥٧.
[٤١]المصدر نفسه.
[٤٢]ينظر: الفقهاء والسلطة وصناعة الحياة: رعد محمود البرهاوي: ٢٥.
[٤٣] ينظر: مروج الذهب: ٣ : ٤٣٧-٤٣٩.
[٤٤]رثاء بغداد والبصرة في الشعر العباسي دراسة موضوعية وفنية: عبد الله السناني: رسالة ماجستير:ص:٧٢.
[٤٥]ينظر: مروج الذهب: ٣: ٤٤٢- ٤٤٣.